قصة عبد العزيز مصطفى

كان انزعاجى هذا الصباح ، لأنى سأزور زوجة أخى · أمى تلح على فى ذلك ، ولكن انزعاجى لم يلبث أن تلاشى، عندما ارتسم فى ذهنى مرضها ·وحاجتها الى زيارات · واذا كنت قد ضقت بالحاح أمى فلأنى أضمر كراهية غامضة لزوجة أخى ، تنوء بها نفسى الى حد انى أتمنى أحيانا الخلاص من كراهيتى ، فانه شعور يشقينى ، الأمر غريب فى الظاهر ولكن لا غرابة اذا كانت زوجة أخى فى العشرين ، ولا زلت أدعى : « موموزيل ليلى » رغم الخامسة والعشرين التى أتممتها أمس · كان على أن أحل مشكلتى بيدى ، فلقد أخفقت ، كما أخفقت أمى فى أمر زواجى المنشود · أما « حسن» فهو بدين أكثر من اللازم ، و « طاهر » مجرب فى دنيا النساء الى المدى الذى أفسده ، فلم يعد من الحكمة أن يؤمن جانبه · أما « عبد الموجود » فلا أعرف له عيبا الا قسوة أحلامى التى تفرض على أن أزف الى رجل مثقف يحمل درجة جامعية ، وفرق كبير بين « عبد الموجود » الثرى الريفى وبين رجل أحلامى ·

ولم أجد بدا من الذهاب· ولم يستطع رونق الصباح وبهاؤه أن يبهجنى فقد كانت آثار مشكلتى « كصمام الأمان » ولكن ضد السرور والنشوة ·· ولم تمض ساعة واحدة حتى كان القيظ يبسط أجنحته الذهبية الحمراء على الطريق اللامع حيث يقيم أخى ·

بينما كنت أصعد الى الطابق الثالث ، اذا بشاب يهبط الدرج ، ويثبت نظره نحوى لحظة ، ثم يشملنى بنظرات مستوعبة سريعة من أعلا الى أسفل · ويمضى متباطئا كأنه يفتعل الهدوء والرزانة ، لم يثر اهتمامى الا نظراته المستوعبة وسوالفه البيضاء · ودلفت الى زوجة أخى ، وصورة الشاب الوقور تتلاشى فى نفسى كما يتلاشى الصدى · كم هى جميلة زوجة أخى ، داخلنى احساس بأنوثتى عندما اقبلت نحوى باسمة تصافحنى لعلها شفيت من مرضها احساس فيه حقد وألم ورغبة فى كسر القيود من حولى · ويالاضطراب اللذيذ الذى تسلل الى أعماقى عندما فوجئت بالشاب الوقور حائلا أمامى عند العودة· نفس النظرات ، وان شابها ابتسام يعدى حتى جعلنى ابتسم ابتسامة واهنة بالرغم منى · انه يختلف عن الكثيرين الذين يتطلعون الى فى الطريق· أو هكذا أحببت أن أوهم نفسى ، مجرد ميل يجعلنى أعتقد أنه مختلف وجدير أن التفت اليه وأفكر فيه ·ولكن ياللوهم وانطلاق الخيال ، وكعادتى أجهدت نفسى فى النادى · « البينج بونج » يستأثر باهتمامى ، كأننى اتشبث به حتى أشغل نفسى عن نفسى ·

··· حتى أنفق حيويتى فى اللعبة مجاهدة مشاعرى ، ثائرة على احساسى بأنوثتى · هاربة من شعور الوحدة والانفراد بالرغم من كل الناس حولى· ولماذا لا أصارح نفسى ، الست واحدة

من الفتيات المنتظرات حتى أصبح كزوجة أخى ·· وانى لجميلة ·فرصتى أكثر ضمانا وأوفر ·

تكرر اللقاء بينه وبينى ، حتى أدركت أنه يقيم فى الطابق الأول من بيت أخى ومع ان الآمال تسرف فى التلويح لى ، الا أننى لازلت ثائرة من أجل أنوثتى ، ولذلك أندفع فى النادى الرياضى ،حتى الهث فى اللعب ، ويبلل العرق جبينى وجسمى كله ·

لعنة الله على الخجل ، فلا زلت أصر على تجاهله وافتعال التكبر والعناد · وماذا أفعل ؟ لا أستطيع مبادلته ابتسامته ، والكلمات التى يهمس بها عندما يرانى على السلم صاعدة أو هابطة حتى يوم أن واجهنى وقال : صباح الخير ·· لحظة واحدة ·· ؟

ورغم بساطته فقد أدركت اضطرابه ، وشجعتنى هذه المحاولة الجريئة على أن أغامر وأحادثه · ربما بدافع الفضول · كما أحب أن أوهم نفسى وعلى التأكيد شعور يشقينى ، الأمر غريب فى الظاهر، بدافع التفكير فى مستقبلى ·

ابتسمت ، ولكنى ندمت على تسرعى فقلت له جادة وأعصابى تتماسك :

ـ صباح الخير ·

ـ سؤال واحد ·· هل أنت طالبه ؟

ـ نعم ·

ـ مدموازيل طبعا ؟

وابتسمت فى سذاجة وصعدت الدرج، يغمرنى السرور · وعند عودتى قررت أن أحادثه وليحدث ما يحدث ولكنى لم أره منتظرا كعادتى ·

وبدا لى أن انقطع عن زيارة زوجة أخى شهرا أو شهرين · لا بد أن أقسو على نفسى « ولا بأس أن تشغلنى الأحلام ، وترهقنى لعبة البينج بونج حتى أعود اليه لأحادثه هذه المرة ·

وكان ما قدرت ، لم أرفض دعوته فصحبته الى الحدائق والملاهى · وفى كل خطوة أخطوها يتراءى لى وجه أبى ينظر شزرا وأمى غاضبة فى صمت ثم تنزاح هذه الصورة الغاضبة فتتراءى لى أيام مشرقة قادمة ، فأحس انه يلتصق بى عامدا ، ويترصد صوتى وكلامى ، ولون شعرى الأسود فأستجيب للسرور العميق ، وتهجس فى نفسى نزعات حادة أن أمنحه بعض ما يريد أو أكثر ·· لكن سرعان ما أتمالك نفسى ·

نضب معين الحديث بينه وبينى ، بعد أن تهالكنا عليه ، وقطعنا أشواط الثرثرة بيننا شأن كل علاقة جديدة طارئة ؛ بعد تعطش ، وانتظار · وبدا لى اننى قد انضويت تحت كنف العاطفة الناشئة بينى وبينه · وكأنما كان الملل فى انتظارنا ليدفعنا من جديد ، فاتفقنا على الزواج ،فى غمرة الحماس بينما كانت يداه تمس أجزاء جسمى فى رفق وعصبية ونشوة ·

صار الليل والنهار ظلمة ونورا لامعنى لهما الا كعلامات على الطريق الذى نمضى فيه ، الظلمة تحيط بجونا العاطفى الحار وهمساته الدافئة · والضوء بسمة ومرح نشغله نحن بثرثرتنا ولمس أيدينا ولقاء أنفاسنا ·

وكشأن المحبين أصبحت أيامنا كلها أعيادا ترتفع فيها الزينة وترفرف عليها

الاعلام المزخرفة المتعددة الألوان · وهكذا نتخيل أنفسنا ، فى عيد دائم متجدد · وكشأن الحياة وعادتهـــا كان لا بد من الدموع خلال البسمات والضـحكات · ذات يوم ، كنت أجلس الى أمى نثرثر فى هدوء كأننا نخفى أشجان الذكريات · لقد أصبح فتاى الوقور ذكرى ، بعـد أن أحاطه أبى بمودة وحنان وهو القاسى العنيد · وبعد ان اطمأنت اليه أمى وكانت بسمتها تتسع فيشرق وجههـــا بالصفاء والصدق كلما رأنه على البـاب يستأذن مستحيبا فى الدخول ·

أصبح فتاى ذكرى منذ أن انقطعت أخباره وزياراته ، ولم تعد قلوبنا تخفق لرؤيته كأنها ترحب بالزفاف المنتظر ·

وسارت ظلمة الليل فى جهامة ليسطع ضوء الشمس من جديد كالسيف يبدد الظلمة ، ويثير الصراحة والوضـــوح ، ويفتح المجال مرة أخرى للأمل فى حياة جديدة · وجاءت الحياة الجديدة ، فى هدوء ، وفتحت عينى ذات يوم لأجدنى زوجة ، تزوجنى رجل لم أعرفه من قبل وأصبح لى بيت هادىء ، يقطع هـدوءه صراخ طفلى الرضيع ·

ان زوجى يستأثر باهتمامى ، وصورة الشاب الوقور · تضعف وتنزوى ثم تعود · لكن لقد هانت تلك الصـــلة السخيفة التى حشدت آمالى وقضت عليها بضربة واحدة ، هانت ولم تعد تتسلل الى قلبى · أو هكذا أحب أن أعتقـــد واتخيل قضائى · وفجأة ذات يوم كنت أحمل طفلى الرضيع ، عائدة الى منزلى ·· عندما رأيته ·· وجها لوجه · وكأن ضعفى وضعف صورته قد تحولا الى قوة عاصفة ، هزتنى ، ولكنى تمالكت · مد يده فصافحته ، وابتسمت فى هـدوء وجاهدت كى أبدو غير مبالية به ساخرة منه ، زاهدة فيه·وقلت له فى بساطة : لماذا لا تزورنا ؟ · أمى تسأل عنك ·· وكذلك أبى ·

وافترقنا · وشعرت اننى أعود الى الأمس ، وان الماضى يجثم على صـدرى ليجذبنى اليه · وفى تزاحم الذكريات نزع فى ظلال الحزن شعاع باسم « كان ذلك لأنى مسرورة هذا السرور الطارىء، الذى نفترضـــه ساعة أن يطغى الألم وتهجم موجاته على الشاطىء المستسلم بلا حيلة · نفترضه ونتعلق به كما نتعلق بطوق الحياة ·

مسرورة لأنى · عندما رأيته فجأة ـ نجحت فى اخفاء مشاعرى كأن الأمر كله لا يعنينى ·